

# المركزية الأوروبية

## وعلاقة الشرق بالغرب في الفكر الماركسي

ميشال نوفل

تسعى هذه المحاولة إلى إعادة تركيب عناصر الرؤية التي تُمحور العالم حول أوروبا في فكر كارل ماركس وفريدريك انغلز، والتقاط تطور مفهوم «المركزية الأوروبية» (Européocentrisme) على يدي لينين وتحولته مشروعاً استراتيجياً يستعيد وظيفة «مركز الاستقطاب». فالتصور القائل بضرورة صياغة النظام العالمي، انطلاقاً من نموذج للتنمية محكوم بالتجربة الأوروبية، الأمر الذي يفترض تقنين المجاري المختلفة، والمتعددة للتراث الحضاري الانساني، تبعاً لحاجات مركز ثقل واحد - مع ما يترتب على هذه العملية (Procès) من إلحاق وتدمير للثقافات غير الأوروبية المنكفئة إلى حدود «أطراف» تابعة - هذا التصور يتواصل في فكر لينين الذي راهن حتى اللحظة الأخيرة على الديناميكية الثورية للغرب.

### السمات المميزة

إن الماركسية، كنمط أصيل من التفكير الأوروبي، تحمل السمات المميزة للثقافة الأوروبية، كما تبلورت منذ عصر « النهضة »، وهي فهم التاريخ بصفة كونه تياراً تمدنياً واحداً، منطلقه التراث المزدوج الإغريقي - اللاتيني واليهودي - المسيحي<sup>(١)</sup>، ومآله « وحدة التاريخ » و« وحدة الحضارة »، وهي المقولة التي يعيدها أرنولد توينبي إلى (٣) جذور: وهم الذات - المركز، وهم « الشرق الثابت »، والتصور المسبق للتقدم باعتباره حركة تسير في خط مستقيم<sup>(٢)</sup>، والإدراك المادي للحياة والكون الناجم عن الفصل بين الفكر والمادة والروح والجسد، ومنه النزعة الفلسفية النفعية / الأنانية، والنظرة التي تحدّد جوهر الوجود بالصراع والتناقض، مما يفترض تصوراً للعلاقة بين الانسان والطبيعة يباعد بينهما ويكرّس الغربة بين البشر<sup>(٣)</sup>، ويستتبع نزوعاً إلى السيطرة على الطبيعة وامتلاكها والتصرف بثرواتها من دون حدود، لكون « الانسان سيد الطبيعة ومالكها » - بحسب صيغة ديكرات الشهيرة - . وتجلّت هذه النزعة مع « عصر الأنوار »، خصوصاً منذ الثورة الصناعية في أوروبا، وقد بلغ جنوح

المادية الذروة مع ماركس، الذي أسس الاجتماع على الاقتصاد، والاقتصاد على تقنيات الانتاج الصناعي، معتبراً أن « وحدة الوجود هي وحدة الوجود الاقتصادي »<sup>(٤)</sup>.

وبما أن توحيد العالم اقتصادياً كان يجري على قاعدة النموذج الغربي، وكذلك توحيده سياسياً، فإن ماركس لم يترك للشرق على المستوى الثقافي سوى طريق واحد للخلاص، هو « التأورب »، في حين أن لينين، الذي كان أوروبياً من حيث العقلية والتجربة، التزم نهج معلّمه بأمانة. فربط نفسه بالثورة الأوروبية، وأدار ظهره للشرق على رغم انتائّه إلى عالم ما بين أوروبا وآسيا وانفتاحه على مشاكل آسيا<sup>(٥)</sup>.

### جوهر « التأورب »

ما من تعارض في فكر ماركس بين النزعة الضيقة التي تمحور العالم حول أوروبا والرؤية الاستراتيجية « الأممية ». ففي مقالاته الشهيرة عن نتائج السيطرة البريطانية على الهند، طوّر ماركس مفهوماً عن الحضارة الهندية، والحضارة الآسيوية عموماً، يراها دون الحضارة الأوروبية. لقد تراءى له، في الهند وآسيا، مجتمع لا تلعب فيه المبادرة الفردية أي دور، مما جعله يستنتج أن هذا المجتمع يخنق كل النشاط الاقتصادي والسياسي في ظل « الاستبداد الشرقي »<sup>(٦)</sup>.

وماركس الذي اعتبر، في رسالة إلى أنغلز بتاريخ (٢ حزيران / يونيو ١٨٥٣)، غياب الملكية الخاصة للأرض « المفتاح الحقيقي للسوء الشرقية » وأحد ركائز « الاستبداد الشرقي »، ذهب إلى أن السمتين الأساسيتين لنمط الانتاج الآسيوي، هما: اقتصاد يستند إلى عدد هائل من التجمّعات القروية الصغيرة المنعزلة عن بعضها والتي تمارس الزراعة والحرفة على نطاق محدود، ووجود دولة استبدادية في القمة تستحوذ على قسم من الفائض منتوج التجمّعات القروية، وتتحمل أعباء الأشغال العامة بمجملها، خاصة الري، وهذا أمر لا بد منه لحسن سير عجلة الاقتصاد<sup>(٧)</sup>.

وتنطوي مفاهيم ماركس هذه على أبعاد واضحة؛ فنمط الانتاج الآسيوي يقابل مرحلة مبكرة جداً من تطور البشرية تلي مباشرة الشيوعية البدائية، والتأكيد على أن البلدان الآسيوية ما زالت في فجر الحضارة، إنما يعني أن هذه البلدان لن تخرج أبداً من حال الركود من دون تدخّل الغرب. ولا يترك ماركس مجالاً للتساؤل حول شرعية هذا التدخّل والأشكال التي قد يرتديها، سوى الإطار الذي تحدّده النظرية القائلة: بأن الحكم على أية حرب يجب أن يركز على خصائصها، فإذا كانت تساهم في « التقدّم » ينبغي تأييدها.

« إن انكلترا بإطلاقها ثورة اجتماعية في هندستان، لم تكن مدفوعة بالتأكيد إلّا بالمصالح الأكثر دناءة، وقد أنجزتها بوسائل غير معقولة. لكنّ المهم ليس هنا، بل في السؤال الحقيقي التالي: هل يمكن أن تحقق الإنسانية

رسالتها من دون انقلاب جوهري في الحالة الاجتماعية لآسيا ؟ إذا كان الجواب سلبياً ، فإن انكلترا تكون عندئذ الأداة غير الواعية للتاريخ بتحقيقها هذه الثورة أياً كانت جرائمها <sup>(٨)</sup> . ولا شك في أن وعي ماركس لطبيعة الصراع الدائر هو الذي يجعله يحدّد مسبقاً آلياته ونتائجه ، بحيث ينتفي تصوّر مخرج آخر غير الهيمنة الغربية : « على انكلترا أن تحقّق في الهند مهمة مزدوجة ، تدميرية وإحيائية : القضاء على النظام الاجتماعي الآسيوي القديم وخلق الأسس المادية لنظام اجتماعي غربي في آسيا ... » <sup>(٩)</sup> .

### رسالة تمديدية

وهكذا يضيف ماركس رسالة تمديدية على الاستعمار الأوروبي الحديث . فإذا كان الشرط الذي يؤهل الآسيويين للعب دور ما في العالم وتطوير حضارة ديناميكية هو « تأوربهم » ، فإن جوهر « التأورب » يتمثّل في « التمدّن » الرأسمالي ، أو « التقدم » على طريق التوحيد الاقتصادي وفقاً للنموذج الغربي . حتى روسيا القيصرية التي تلاحقها لعنة « الاستبداد الشرقي » <sup>(١٠)</sup> والتي ينظر إليها على أنها مصدر الخطر الداهم الذي يهدد أوروبا من الداخل ( الأطراف الشرقية ) ، ومن الخارج ( الأطراف الآسيوية ) <sup>(١١)</sup> ، فقد قدمت إليها فرصة العبور في « المطهر » عبر القيام بدور تمديني في الشرق .

ويدافع انغلز عن عمليات الغزو والاستيطان التي كانت تقوم بها روسيا في آسيا الوسطى ، مؤكداً أن « روسيا ... هي فعلاً تقدمية بالنسبة إلى الشرق . فمقابل سفالتها وقذارتها السلافيتين ، تشكل السيطرة الروسية عاملاً تمدينيّاً في البحر الأسود ، وبحر قزوين وآسيا الوسطى ، وفي أوساط الباشكير والتتار ... إلخ . » <sup>(١٢)</sup> . وحين يتنافس بلدان أوروبيان على منطقة في طور النمو ، يفضل ماركس وانغلز البلد الأكثر تقدماً . ونظراً إلى أن مفهوم « الأكثر تقدماً » كان ينطبق على انكلترا ، فإن النفوذ البريطاني يجب أن يتقدم على النفوذ الروسي . ويقول انغلز في هذا الصدد : « من الواضح أن التفاعل الأساسي بين أوروبا وآسيا الوسطى ، وهو الوسيلة الرئيسية لتمدين تلك المنطقة الواسعة ، وليس التجارة الواسعة النطاق فحسب ، يتوقف على حرية التجارة دون عائق عبر تلك البوابات إلى البحر الأسود » <sup>(١٣)</sup> .

في معرض استخلاص « الشروط المادية لعالم جديد » ، يقول ماركس إنه « عندما تكون ثورة اجتماعية كبيرة قد حكمت بإجهازات العصر البورجوازي - السوق الدولية والقوى المنتجة الحديثة ، وأخضعها للرقابة المشتركة للشعوب الأكثر تقدماً ، عندئذ فقط لن يعود التقدم الانساني شبيهاً بهذا الإله الوثني الرهيب الذي لم يكن يريد ارتشاف الكوثر إلا في جاجم الأعداء المقتولين » <sup>(١٤)</sup> .

وتبدو موافقة ماركس وانغلز على الغزو الأمريكي للمكسيك العام ( ١٨٤٧ ) ، مرتبطة بكون الولايات

المتحدة في نظرها أكثر تقدماً من بريطانيا، من ناحية، واعتبارها المكسيك بلد « كسالى »، إن لم تكن أرض « أدنى الرجال »<sup>(١٥)</sup>، ويحتاج إلى وصاية بلد متقدم ما، من ناحية ثانية. لذلك من الأفضل أن يكون هذا الرصي الولايات المتحدة وليس انكلترا. في أي حال، لقد توقعنا أن يقدم « البانكي الشيطاني » على تطوير كاليفورنيا بوتيرة أفضل وأسرع مما فعل أو قد يفعل أهل المكسيك<sup>(١٦)</sup>.

وعندما ضربت المقاومة الاسلامية في الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر، لم تكن ردود فعل انغلز مختلفة في مضمونها عن تعليقاته وماركس حول الحرب المكسيكية، وإن بدا تأييد الاحتلال الفرنسي أكثر صراحة، ولا مست الأحكام المتعلقة « بالسكان الأصليين » حدود الازدراء العنصري:

« إن نضال البدو أمر لا رجاء منه، فعلى رغم أن الأسلوب الذي اتبعه في الحرب جنود متوحشون، من أمثال بوغو، يستحق اللوم، فإن إخضاع الجزائر عمل مهم وميمون من أجل تقدّم المدنية. ولم يكن ممكناً قهر قرصانات دول البربر التي امتنعت الحكومة الانكليزية عن التدخل في شؤونها ما دامت لا تتحوش بسفنها، إلا بإخضاع واحدة من هذه الدول. فقد أصبح هؤلاء مضطرين إلى إيجاد عمل آخر لشعوبهم غير القرصنة، ووسائل أخرى لملء خزائهم غير الإتاوات التي تدفعها لهم الدول الأوروبية الصغرى. وإذا كان الأسى قد تملّكنا بسبب الدمار الذي لحق بجزيرة البدو في الصحراء، فإنه يجب ألا ننسى أن هؤلاء البدو أنفسهم كانوا أمة من النهايين، الذين تقتصر وسائل عيشهم الرئيسية على الغزو المتبادل أو غزو القرويين المستقرين، من بعيد، تبدو كل هذه الأمم البربرية وكأنها شديدة الكبرياء والنبيل والعظمة، لكنك إذا اقتربت منها تجدها محكومة بشهوة الربح، كالأمم الأكثر تقدماً، لكنها تستخدم وسائل أكثر بدائية وقساوة. في أي حال، إن البورجوازي بما يجلبه من مدنية وصناعة ونظام وتنوير نسبي، هو الأجدر بالتأييد من الإقطاعي صاحب الأرض أو النهاب الغازي على رغم أن الاثنين ينتميان إلى مجتمع بربري»<sup>(١٧)</sup>.

### « الخطاب الاستعماري »

إن النص الماركسي، كما رأينا، هو نص أوروبي، بمعنى أنه لا يحمل أي نظرة نقدية أساسية للظاهرة الاستعمارية<sup>(١٨)</sup>. ويستمد عصب تماسكه من نزعة الاستكبار الملازمة لـ « المركزية الأوروبية »، لذلك لم تنفع كل الجهود التي بذلها عدد من المؤرخين والمفكرين الماركسيين المحدثين، في محاولتهم تبرير وطمس « الخطاب الاستعماري » لماركس وانغلز، بواسطة تفسيرات « موضوعية »، تحدّر تارة من حرفة النص التي لا تأخذ في الاعتبار السياق الحداثي والتاريخي، أو تفتش عن تعليل في تصوّر المعلومات ومحدودية وسائل الاعلام في ذلك العصر، وتتحدث تارة أخرى عن أولويات نظرية ركزت الاهتمام على تحليل الرأسمالية في إطارها الأوروبي معتبرة ما عداها حضارة زائلة... إلخ. فقد ألقت « المركزية الأوروبية » بظلالها الثقيلة على مسألة حق تقرير

المصير، التي لم تظهر في كتابات ماركس وانغلز إلا في حالات استثنائية، تتعلق بأهم أوروبية صغيرة تتعرض للقهر من جانب أمم كبيرة.

وقد جاء في «الاعلان المؤيد لبولونيا»، الذي كلف ماركس بصياغته في لندن (في تشرين الأول / أكتوبر ١٨٦٣) إثر اعدام جنود القيصر على سحق التمرد البولوني (في ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٨٦٣): «إن شعباً يضطهد شعباً أخرى لا يمكن أن يكون حرّاً»<sup>(١٩)</sup>. وقد ظهرت هذه الفكرة التي ركز عليها لينين لاحقاً، في رسائل عدة متبادلة بين ماركس وانغلز، ولو بصيغ مختلفة أحياناً؛ وطبقها ماركس في (١٨٧٠) على شعب إيرلندا، رداً على الفوضوي باكونين الذي أيد اضطهاد انكلترا لايرلندا: «إن الشعب الذي يضطهد شعباً آخر إنما يصنع قيوده بنفسه». إلا أن مبدأ حق تقرير المصير ظل محصوراً، بالنسبة إلى الأبوين المؤسسين للماركسية، بالدائرة الأوروبية.

في المقابل، خص انغلز «البلدان المتخلفة» بدور التبعية، بحيث أن «انتصار بروليتاريا أوروبا الغربية» لا يكفي أن يكون هو «الشرط المسبق الضروري» لأيّ تحول في «البلدان المتخلفة»، بل يتعين على أوروبا أن تبين لها «كيف العمل» للانتقال إلى الاشتراكية<sup>(٢٠)</sup>.

### الدوائر الثلاث

وفي (١٢ أيلول / سبتمبر ١٨٨٢)، قبل (٦) أشهر من وفاة ماركس، تناول انغلز مشكلة المستعمرات، من وجهة نظر حق الأمم في الاستقلال. إذ كتب في هذا الشأن رسالة إلى كاوتسكي<sup>(٢١)</sup> وردّ فيها الآتي:

«... في رأيي، أن المستعمرات بالمعنى المحدد، أي الأراضي المحتلة من السكان الأوروبيين مثل: كندا، والكاب، وأستراليا، ستصبح كلها مستقلة. على خلاف ذلك، وبصدد المناطق المستعبدة فحسب، والتي يسكنها الأصليون مثل: الهند، والجزائر والممتلكات الهولندية والبرتغالية والاسبانية، فإنه سيتعين على البروليتاريا أن تنمّدها مؤقّناً وتقودها في أسرع وقت إلى الاستقلال... ومن شأن إعادة تنظيم أوروبا وأميركا الشالية إضفاء قوة هائلة ومثال، والأمران مهمّان إلى درجة أن البلدان شبه المتمدنة ستتبعنا تلقائياً: الضرورات الاقتصادية ستكون كافية لدفعها في هذا الاتجاه».

هنا، تتجلى النظرة التي تمحور العالم حول أوروبا، في توزيع استراتيجي للدوائر الحضارية، يبدأ من المركز الأوروبي، الأميركي، ويمر عبر دائرة الاستيطان الأوروبي، لينتهي بدائرة البلدان المستعبدة. ويتميز هذا التقسيم بأنه ثقافي في الأساس. فالنموذج هو أوروبا وامتدادها في أميركا الشمالية، والمناطق المطلوب وضعها تحت الوصاية هي «البلدان شبه المتمدنة»، وأن الاستقلال للمستوطنين الأوروبيين مسألة لا تناقش. أمّا العلاقة التي

تتحكّم بالتوازن بين الدوائر الثلاث، فهي مركزية تراتبية تتوقف على «إعادة تنظيم» المحور الغربي، كي يستوعب العامل الأميركي الطارئ، في توازنه الداخلي الجديد.

## اختراق الشرق

أمّا لينين، فقد تناول مشاكل الثورة في البلدان غير الأوروبية، في إطار منظومة من المفاهيم الاستراتيجية، تقضي بتقنين القوى الوطنية في آسيا لوضعها في خدمة الثورة في أوروبا. وكان هذا التوجّه يتطلب تعديلاً في أدوات الماركسية، لكي تصبح قابلة لاختراق الشرق، من دون أن يعني تغييراً أساسياً في «الخيار الأوروبي». لذلك، طغت نزعة النفعية على الموقف اللينيني من حركة البلدان المستعمرة والتابعة، خصوصاً أن لينين لم يكن يرى أية قيمة ذاتية للواقع الوطني، وهو القائل إن «شعار الثقافة الوطنية هو خديعة بورجوازية... أمّا شعارنا نحن، فهو الثقافة الأممية للديمقراطية وللحركة العمالية الكونية»<sup>(٢٢)</sup>. وكونه عارض في شدة منحى روزا لوكسمبورغ الرافض لحق تقرير المصير بحجة أنه رجعي، لا يعني أنه كان مؤيداً لتقرير المصير كمبدأ مطلق، بل إن ذلك يعود فقط إلى اعتقاد لينين بأن دعم المطالب الوطنية يمكن في كثير من الحالات أن يعجل مسيرة الثورة الاجتماعية، أي يوفر إمكان توظيف ديناميّة «الأطراف» في عملية قلب الأوضاع على مستوى «المركز»<sup>(٢٣)</sup>.

لقد التقط لينين الأهمية الاستراتيجية لطاقة التفجير الكامنة في الواقع المتحوّل في المستعمرات، وتحديدًا على «الأطراف» الآسيوية للمقاربة «الخامدة»، حيث أظهرت التطورات المتسارعة خلال العقد الأول من القرن العشرين الأبعاد الخطيرة للتصدّع الذي أصاب الرقعة الامبراطورية من جرّاء اختراق للمركز الأوروبي على خطوط التماس مع آسيا. فقد قدمت الهزيمة التي ألحقتها اليابان بروسيا في (١٩٠٥) الدليل الملموس على أن التفوّق الغربي ليس من العناصر المكونة الدائمة للتاريخ، بعدما «ظل الشرق حتى ذلك اليوم لا حول له ولا قوة، حيال أوروبا المعتدية عليه؛ أو كان الكثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب، يقولون أن لا مناص لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلّحة خضوعاً مشؤوماً»<sup>(٢٤)</sup>. ولا نبالغ، إذا قلنا إن الحرب الروسية - اليابانية في (١٩٠٥)، كان لها وقع الصدمة في النفوس على امتداد الشرقيين؛ وقد أعطت زخماً جديداً لحركة التجديد الفكرية والسياسية، التي أسندت النهوض الاسلامي المتواصل في مستعمرات آسيا الوسطى خلال الفترة (١٩٠٧ - ١٩١٧).

إن مقالة لينين «مواد ملتهبة في السياسة العالمية» التي كتبت في العام (١٩٠٨)، تحت تأثير الأحداث التي تلت الهزيمة الروسية أمام اليابان، والثورة في روسيا سنة (١٩٠٥)<sup>(٢٥)</sup>، تشهد على محاولة مرتبكة لاستيعاب

ما. كاد أن يشكّل انقطاعاً في الرؤية الغربية. فالانتصار الياباني، الذي يمثل في الواقع أول هزيمة لقوة غربية كبرى أمام الشرق منذ قرون، لا يريده لينين تحدياً للحضارة السائدة، كون «العامل الأوروبي الواعي قد حصل على رفاق آسيويين...» يقدمون في أحسن الأحوال مثلاً «لنضال مظفر»، من شأنه أن يشجّع «عشرات الملايين من البروليتاريين في آسيا». ويعود لينين مرةً أخرى في العام (١٩١٢)، ليشدّد على انتسابه لعالم ماركس الفكري في مقال له عن **صن يات صن**<sup>(٢٦)</sup>، مؤكداً على الدور الحضاري للغرب: «... إن الشرق قد سلك نهائياً طريق الغرب، وإن المئات والمئات من الملايين الجديدة من الناس ستشارك من الآن وصاعداً في النضال من أجل المثل التي نادى بها الغرب». ويصر لينين على مقاييسه الأوروبية، معتبراً رئيس جمهورية الصين حينذاك **صن يات صن** «نداً للرجال العظام والأنبياء الذين أنجبته فرنسا أواخر القرن الثامن عشر» مشيراً إلى أن أوروبا وأميركا هما المصدران الذي تقتبس منه «الأفكار التحررية». وفي مقال آخر «أوروبا المتأخوة وآسيا المتقدمة»<sup>(٢٧)</sup>، يقيم لينين مقياساً للتقدم والرقى هو البروليتاريا الأوروبية، التي ينيط بها الدور الأساسي في تحرير شعوب آسيا.

## «الامبريالية»

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتسجّل مرحلة جديدة في مسار لينين الفكري، فقد واجهه مؤسس البلشفية<sup>(٢٨)</sup> مشكلة انهيار الاشتراكية الديمقراطية في البلدان المتقدمة، بسبب الموقف من الحرب من جهة، وتنامي حركات المقاومة المناهضة للغرب في العالم المستعمر من جهة أخرى. وحاول لينين أن يجد نظاماً متماسكاً يستوعب هاتين الظاهرتين في آن، فكانت «الأممية الشيوعية» أو الأممية الثالثة<sup>(٢٩)</sup>، وهي أداة لاستراتيجية جديدة وضع قاعدتها النظرية، في كتابه «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» (نيسان / أبريل ١٩١٦)، الذي يندرج بناؤه في الايديولوجية الماركسية الكلاسيكية، لكنه يتميز بجدة استنتاجاته السياسية - الاستراتيجية. وقد استوحى لينين جوهر التصوّر العقدي من مؤلفين سابقين هما، «الامبريالية» لهوبسون<sup>(٣٠)</sup> و«رأس المال المالي» لروودلف هيلفردينغ<sup>(٣١)</sup>.

وادعى لينين، في محاولته تحديد سمات القرن العشرين، التمييز بين «الرأسمالية القديمة، حيث تسود المنافسة الحرة»، والتي تتميز «بتصدير السلع» من ناحية، و«الرأسمالية الحالية حيث تسود الاحتكارات»، والتي تتميز «بتصدير الراسمائل» من ناحية ثانية، غير أن لينين تجاهل، بربطه تصدير الراسمائل بوجود احتكارات رأسمالية، حقيقة أنه لا ألمانيا ولا الولايات المتحدة - وهما البلدان اللذان يتميزان بالتركز الصناعي الواسع - كانتا من مصدري الراسمائل في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، في حين كانت فرنسا شبه الزراعية تأتي في المرتبة

الثانية - بعد بريطانيا - كمصدر للرساميل . إلى ذلك ، لم يأخذ لينين في الاعتبار إطلاقاً كون تصدير السلع ارتبط بشكل وثيق طوال القرن التاسع عشر بعمليات تصدير مسبقة للرساميل ، خصوصاً في قطاع المواصلات والمناجم . أما التمييز التاريخي الذي أقامه ، فهو يستهدف مقابلة الرأسمالية التنافسية ، التي تصوّر على أنها مسالمة ، برأسمالية الاحتكارات العدوانية والتوسعية . وبناء عليه ، يعرف « الامبريالية » ، على النحو الآتي :

« الامبريالية هي الرأسمالية التي وصلت إلى مرحلة من النمو تعزّزت فيها سيطرة الاحتكارات ورأس المال المالي ، وأكسب تصدير الرساميل أهمية من الدرجة الأولى ؛ وبدأ اقتسام العالم فيما بين الشركات الاحتكارية المتحدة العالمية ، في حين انتهى اقتسام الكرة الأرضية فيما بين البلدان الرأسمالية الكبرى »<sup>(٣٢)</sup> .

هذا التعريف يبدو انتقائياً ، لأنه يعني فقط وجود ونشاط الاحتكارات الرأسمالية الساعية إلى التوسع خارج دوائرها الوطنية ، وهي لا ينطبق على الغزوات الاستعمارية السابقة لظهور مثل هذه الاحتكارات ؛ إضافة إلى أنه بعيد عن مفهوم الامبريالية بمعنى الهيمنة السياسية التي تمارسها أمة قوية على أخرى أضعف منها ، لكن فائدته السياسية تكمن في أنه يقيم تطابقاً بين الامبريالية المكروهة من الشعوب المستضعفة ، والرأسمالية التي تصبح السبب الوحيد لهذه الامبريالية . علاوة على أنه يسمح بإنكار أيّ طابع امبريالي للتوسع السياسي لقوة ينقصها « رأس المال المالي » .

### المفهوم المركز

لقد تصوّر لينين ، في ضوء تحليله لـ « الامبريالية » ، أن « القوى المنتجة » في القارة الأوروبية الممرّقة قد استنفدت نموّها ، بحسب الشرط الضروري الذي وضعه ماركس للثورة الاشتراكية . لذلك استهدفت « الأهمية الشيوعية » ، قبل أي شيء ، الثورة البروليتارية في أوروبا ، وألحقت بها المسألتين الوطنية والكولونيالية ، وتفادت الكلام على « حق الشعوب في تقرير مصيرها » ، الذي طرح على الملأ بفضل النقاط الـ ( ١٤ ) ، التي تضمنها برنامج الرئيس ويلسون . وألحت الأهمية في المقابل على « اتحاد الشعوب في إطار تعاون اقتصادي وثيق ، تبعاً لخطة اقتصادية مشتركة »<sup>(٣٣)</sup> ، آخذة في الاعتبار « الثقافة الوطنية ، دون إلحاق أيّ ضرر بالحياة الاقتصادية الموحدة والمركزة لأوروبا والعالم »<sup>(٣٤)</sup> . ووسعت هذا المفهوم المركز (Centralisateur) بحيث يشمل شعوب المستعمرات في القارات الأخرى : « إن انعتاق المستعمرات غير معقول ، إلّا إذا تزامن مع انعتاق الطبقة العاملة في مراكز الاستقطاب (Metropoles) »<sup>(٣٥)</sup> . مما يعني في وضوح ، أن تحرّر الآسيويين أو الأفريقيين لا يمكن أن يجري خارج الثورة الأوروبية : « أيها العبيد المستعمرون في أفريقيا وآسيا ، إن ساعة الديكتاتورية البروليتارية في أوروبا ستدق بالنسبة إليكم ، كأنها ساعة خلاصكم »<sup>(٣٦)</sup> . وإذا كانت الأهمية الشيوعية قد ادّعت إزالة تبعية



الشعوب المستضعفة لأوروبا؛ فإنها لم تتخلَّ قط عن وضع هذه الشعوب تحت وصاية الطبقة العاملة الأوروبية، التي تؤمّن بذلك البديل السياسي والاقتصادي عن البورجوازية المتداعية، ولم تقترح في أيّ وقت إنشاء « اشتراكية » آسيوية أو إفريقية على هامش الاشتراكية الأوروبية أو في موازاتها .

### احتياط للبروليتاريا

بعد انقضاء سنة على المؤتمر الأول للأمية الثالثة، دخلت الثورة في أوروبا مرحلة النزاع الأخير أو أجهضت، وبدا للمؤتمر الثاني للأمية المنعقد في (تموز / يوليو ١٩٢٠)، أن لوحة أوروبا الخارجة من الحرب « توحى بفكرة دار للمجانين »<sup>(٣٧)</sup>، فيما كانت « المسألة الوطنية في المستعمرات حبل بالانذارات، والانتفاضات تهز مصر والهند وفارس »<sup>(٣٨)</sup>. إذ ذاك أدارت الأمية وجهها إلى ما وراء البحار، فلاحظت « النضال المتزامن الذي يخوضه السكان المحليون ضد الغزاة والملاكين الاقطاعيين والكهنة والمرابين في آن معاً؛ مما يجعل جيش الانتفاضة الكولونيالية المتعاطمة قوة تاريخية من الدرجة الأولى، واحتياطياً للبروليتاريا العالمية لا ينضب »<sup>(٣٩)</sup>. إذن، فإن بروليتاريا المستعمرات ستحل مكان رفيقتها الأوروبية، التي تفقد مهمة قيادة الانتفاضة الكولونيالية، وتوجيهها وجهة اشتراكية، وتخلي موقعها لروسيا السوفياتية بالنظر إلى كون « مجمل الأحداث في السياسة العالمية تتمحور لا محالة حول مركز ثقل، هو معركة البورجوازية الدولية ضد جمهورية السوفيات، التي عليها أن تجمع حولها الحركات السوفياتية للعالم المتقدمين، من ناحية، والحركات التحريرية الوطنية للمستعمرات والقوميات المضطهدة، من ناحية أخرى ... »<sup>(٤٠)</sup>. وتنظّم قيادة الأمية الثالثة مؤتمر باكو لشعوب الشرق، تنفيذاً للتوجيه القائل بأنه « بات ضرورياً مواصلة عملية تحقيق الاتحاد الأوثق بين الحركات التحريرية الوطنية والكولونيالية، وروسيا السوفياتية ... »<sup>(٤١)</sup>. وفي مجري « التقارب المخصب بين الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية »<sup>(٤٢)</sup> يُدعى الشيوعيون إلى العمل المستمر « لتبيان أن حكومة السوفيات قادرة وحدها على تحقيق المساواة بين القوميات ... ويجب أيضاً أن يبينوا أن نظام السوفيات يؤمن مساعدة مباشرة بواسطة الحزب الشيوعي لكل الحركات الثورية في البلدان التابعة أو المهضومة حقوقها (على سبيل المثال: إيرلندا والسود في أمبركا ... الخ.، وفي المستعمرات »<sup>(٤٣)</sup>.

ويستدل من قراءة متأنية للوقائع، أنه بعد انقضاء (١٨) شهر على رهان المؤتمر الأول للأمية الشيوعية على الثورة الأوروبية، وإعلانه أنها باتت وشيكة<sup>(٤٤)</sup>، كاد المؤتمر الثاني للأمية أن يتمخّص عن مقارنة مختلفة للعلاقة، بين الشرق والغرب: « إن تمكن الثورة البروليتارية من القوة الاستعمارية لأوروبا من شأنه إطاحة الرأسمالية الأوروبية، ويجب على الثورة البروليتارية وثورة المستعمرات أن تساهما، إلى حد ما، في تحقيق النتيجة

المظفرة للمعركة»<sup>(٤٥)</sup> وثمة دلائل على أن هذه المحاولة ما استمدت مصداقيتها العملية من تطورات الانتكاسة الثورية في أوروبا، ومرجعيتها الايديولوجية من موضوعة لينين المتعلقة بانتقال مركز الثقل في الصراع العالمي من أوروبا إلى منطقة الخراب الآسيوي - الافريقي<sup>(٤٦)</sup>، إلّا لتداعى سريعاً، فالتعارض الذي باتت الأهمية الشيوعية تقيمه بين مجمل الأمم المستضعفة، من جانب، والأمم الامبريالية من جانب آخر، لا يوحي بأن استراتيجية لينين تبتعد عن أرض التناقضات الطبقية، بقدر ما ينقل مقولة تقسيم المجتمع إلى طبقات من داخل « الحضارة » إلى « الخارج »، بحيث تتحوّل ديناميكية « أمة » وتضفي شرعية على حلول روسيا السوفياتية مكان الحضارة الأوروبية، لأنه « لا خلاص للشعوب الضعيفة والمستعبدة خارج فيديريالية الجمهوريات السوفياتية »<sup>(٤٧)</sup>. وأن استعادة التقسيم الأوروبي داخل البلدان المستعمرة، عن طريق الفصل بين مصالح البروليتاريا والفلاحين الفقراء، من ناحية، ومصالح البورجوازية الوطنية، من ناحية أخرى، كانت تفرض بالضرورة إعلان الحرب على الحركات الاسلامية أو الآسيوية ذات الطابع التوحيدي، و« الحركات الأخرى المشابهة »، والتي اعتُبرت مصدراً لإمبريالية جديدة مناهضة لأوروبا<sup>(٤٨)</sup>.

## الحد الفاصل

إلا أن مؤتمر باكو في (أيلول / سبتمبر ١٩٢٠)، شكّل الحد الفاصل بين رؤيتين ونهجين. فقد تميز المؤتمر الأول لشعوب الشرق<sup>(٤٩)</sup> عمّا سبقه من مؤتمرات الأمة الثالثة، بكونه شهد تعارضاً بين مفهومين للثورة الكولونيالية في إطار مناظرة استندت، للمرة الأولى، إلى واقع معاش يتملّ في التجربة الثورية المناهضة للاستعمار، التي كانت جارية على أطراف الدولة السوفياتية. وتمثّل الناطقون باسم الشرق من حيث الأساس بمسلمي آسيا الوسطى<sup>(٥٠)</sup>، التي كانت تستعمرها الامبراطورية القيصريّة. وشكّلت مداخلات هؤلاء المسلمين أول محاولة لبناء نظري يتناول الوضع الثوري في المستعمرات<sup>(٥١)</sup>.

وكانت قيادة « الكومنترن » تعاني صدمة انهيار الآمال الموظفة في انتصار مباشر للثورة في الغرب<sup>(٥٢)</sup>، حين حل المسلمون إلى مؤتمر باكو كل مرارتهم، والحدس بخصوصية الثورة في المستعمرات. الأمر الذي يفسّر اللهجة التي اتسم بها الخطاب الافتتاحي لزينوفييف - رئيس المؤتمر - الذي استنجد بالطاقة الثورية في الشرق، داعياً المندوبين إلى « الجهاد المقدس » ضد الامبريالية<sup>(٥٣)</sup>؛ غير أن قيادة الأمة وجدت في المشاكل والمفاهيم التي طرحها المسلمون والآسيويون، أنها تواجه حقاً، للمرة الأولى، إشكاليات الثورة الشرقية. وقد أكد المندوبون المسلمون والآسيويون بالوقائع، كم هو سريع العطب مفهوم « التضامن الطبقي » في الوسط الكولونيالي. كما شدّدوا على الطابع الجوهري للثورة « الوطنية »، باعتبارها الضمان الوحيد لانعتاق الشرق؛ وعلى دور

« البروجوازية الوطنية » فيها <sup>(٥٤)</sup>.

وانتهى المؤتمر بغلبة دعاة تعميم النموذج الماركسي الغربي على الشرق، وإعلان قيادة « الكومنترن » - رداً على مطالبة المسلمين (والآسيويين عموماً) بإعطاء الأولوية للثورة في الشرق، بالنظر إلى ثبات نزعة الاستقرار في الغرب - أن حركة تحرر شعوب الشرق لا تزال قوة ثانوية مساندة للثورة العالمية، وليس خياراً ثورياً آخر، فلم يبق أمام الثورة الشرقية إلا أن تنخرط في الخط العام للأمية الشيوعية <sup>(٥٥)</sup>. لكن زعماء الأمية الثالثة اكتشفوا، خلال أيام ثلاثة عاصفة، أن الشعوب المستضعفة باتت ترفض دور الأداة في خدمة البلاشفة الروس والأوروبيين، وتصرّ على العمل لحسابها الخاص وتقرير مصيرها بنفسها. وتعرّفوا على رجال مجهولين تماماً بالنسبة إلى زعماء الحركة العالمية الأوروبية، وهم مسلمون جاؤوا من آسيا الوسطى البعيدة لإسماع قادة « الكومنترن » كلاماً مقلّماً <sup>(٥٦)</sup>؛ وتجرأوا على التوجّه إلى أوروبا باسم الشعوب الشرقية للتأكيد على المسائل التالية <sup>(٥٧)</sup>:

**أولاً -** الثورة ليست نسقاً واحداً، ويجب ألا تكون في خدمة أوروبا، أو البروليتاريا فحسب.

**ثانياً -** ثمة عالم يتكوّن من الشعوب التي تستعبد لها أوروبا، وهذا العالم يخشى من أن يقع ضحية الثورة الأوروبية، بعدما كان ضحية الامبريالية الأوروبية.

**ثالثاً -** إن الثورة تعني بالنسبة إلى الشعوب المقهورة الانعتاق الوطني، وليس الصراع الطبقي.

وهكذا تصادمت أوروبا « البروليتارية » مع العالم غير الأوروبي، فانشق عن مؤتمر باكو مفهومان للثورة: ثورة ماركس ولينين، باسم البروليتاريا العالمية، من جانب، وثورة الأمم المستضعفة التي تنظر إلى البروليتاريا الأوروبية، على أنها أوروبية أولاً، ومضطهدة ثانياً، من جانب آخر. أي بكلام آخر: « أمية البروليتاريين » تقابلها « أمية للمستضعفين ».

لكن لينين والبلاشفة، الأمناء على تعاليم الماركسية ورسالتها الأوروبية، لم يكونوا مستعدين للخروج على « الاستراتيجية الغربية »، فقرّروا أن يديروا ظهرهم للثورة في الشرق، للعمل على إنقاذ « الثورة في بلد واحد » في الغرب، محافظين بذلك على الرؤية الغربية للدinاميكية التاريخية القائمة على مفهوم صراع الطبقات « القابل للتطبيق عالمياً » <sup>(٥٨)</sup>.

## الحواشي

- (١) ذهب ماركس وانغلز إلى أن جذور الفكرة والحركة الثوريتين في أوروبا، هي مسيحية أساساً. وهما تحدثنا عن حركة اللاهوتي توماس مونزر (Thomas Munzer) على هامش المقارنة بين المسيحية البدائية والاشتراكية، فكتب انغلز: «إن ملكة الله بالنسبة إلى توماس مونزر هي مجتمع لن تكون فيه فوارق طبقية، وملكية خاصة، وسلطة دولة تتعارض مع جماعة أعضاء المجتمع» .  
راجع في هذا الصدد:
- Friedrich Engels: «La révolution démocratique bourgeoise en Allemagne», in «La guerre des paysans  
- Paris , Editions Sociales, 1974, (p.4).
- (٢) انظر: مناقشة تويني لمقولة «وحدة الحضارة» في :  
Arnold J. Toynbee: «L'Histoire, Un essai d'interprétation» - Paris , NRF, 1951; (p.45-51).
- (٣) CF. Pierre Bigo: «Marxisme et Humanisme» - puf, PARIS, 1954; (p.25-44).
- (٤) انظر: أبو الحسن الندوي: «ماذا خسر العالم باخطاط المسلمين» - دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٢؛ (ص ١٥٦ - ١٩٥) .
- (٥) انظر: مطلع الفصل الأول من كتاب:
- H. C. D'Encausse: «L'empire éclaté» - Flammarion, Paris, 1978.
- (٦) راجع: مقتطفات من مقالين لماركس، يعالجان نتائج السيطرة البريطانية على الهند  
H. C. D'Encausse, et S. Schram: «Le Marxime et L'Asie 1853-1964».  
- Armand colin, Paris 1965. (P. 139 - 146).
- (٧) المقتطفات الوارد ذكرها أعلاه، تعرض الخطوط العريضة لهذا المفهوم الذي طوّره ماركس لاحقاً في سلسلة من النصوص، أهمها مودة كتاب «رأس المال»: «أسس نقد الاقتصاد السياسي»، ريبتر فيرلاغ - برلين ١٩٥٣؛ (ص ٣٧٥ - ٤١٣) .
- (٨) راجع هذا النص المتعلق بالاستعمار والكيومونة الهندية، في :  
Maximilien Rubel: «Pages de Karl Marx-2: Révolution et Socialisme» - Payot, Paris, 1970, (p.104).
- (٩) المصدر نفسه .
- (١٠) كتب انغلز في مقاله في (١٨٧٥): «إن مثل هذه العزلة الكاملة لختلف القرى عن بعضها البعض، هي الأساس الطبيعي للاستبداد الشرقي؛ ومن المهند حتى روسيا، وحيث يوجد هذا التكوين الاجتماعي، فإنه يولد الاستبداد على الدوام... إن استبداد القيصر... هو نتاج ضروري ومنطقي للظروف الاجتماعية الروسية» .
- (١١) في سياق جدلية الداخل والخارج الكامنة وراء هاجس «الخطر الروسي»، اعتبر ماركس في (١٨٥٥) «أن مؤامرة الجامعة السلافية هي التي تهدد بتشكيل امبراطوريتها على انقاض أوروبا، وليس روسيا وحدها فحسب» :  
[Marx: Œuvres Politiques, Tome VI, (p.205)].
- وفي السنة التالية، نشر ماركس في لندن سلسلة من المقالات تحت عنوان: «كشف حقائق حول تاريخ الدبلوماسية في القرن الثامن عشر»، حذّر فيها من أن روسيا لا يمكن أن تفهم إلاّ عبر ميراث عبوديتها للنير التناري: «في النهاية، أن بطرس الأكبر هو الذي جمع إلى المهارة السياسية للعبودية المغولية، التطلّعات المتعجرفة للسيد الذي آلت إليه إرادة جنكيز خان: غزو العالم» :  
[«Revelations of the diplomatic history of the eighteenth Century», Free Press, London, 1856-1857].
- (١٢) من رسالة كتبها لماركس في ٢٣ أيار / مايو ١٨٥١ .
- (١٣) ف. انغلز: «القضية الحقيقية في تركيا» (نشر في «النيويورك دايلي تريبيون» في نيسان / ابريل ١٨٥٣) - المؤلفات. مجلد ٩ (ص ١٥) .
- (١٤) نص لماركس، نشر في «النيويورك دايلي تريبيون» في ٢٢ تموز / يوليو ١٩٥٣، ونقل مقتطفات منه، في :

– Maximilien Rubel: «Pages de Karl Marx-2: Révolution et socialisme» - Payot, Paris, 1970, (p.106).

(١٥) من رسالة إلى انگلز بحث بها ماركس في ٦ شباط / فبراير ١٨٥٧، ورسالة أخرى إلى انگلز في ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٦٢.

(١٦) ف. انگلز: «الرابطة السلافية الديمقراطية»، نشرت في «نوفيل غازيت ريتان»، في ١٥ شباط / فبراير ١٨٤٩.

(١٧) ف. انگلز: «الوسائل» في «النجم الشمالي» - لندن، ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٨٤٨، في: [المؤلفات، مجلد ١٦، (ص ٧٢٤)].  
أنظر كذلك: انگلز: «الجزائر» في «الموسوعة الأميركية الجديدة»، تحرير جورج ريبلي وشارل دانا، المجلد الأول، ١٨٦٥، (ص ٣٥٠ - ٣٥١).

(١٨) في «البيان الشيوعي»، الذي نشر للمرة الأولى في شباط / فبراير ١٨٤٨، والذي يعتبر مرجعاً أساسياً للحركة الشيوعية العالمية، يحدّد ماركس وانغلز تحركاً للتاريخ: الصراع الدائر في إطار الحضارة الواحدة، ويحدّد الاستثمار ببضعة أسطر تنطوي على تقويم إيجابي، إذ يستخدمان عبارة «اكتشاف أميركا»، للدلالة على تدمير الحضارة الهندية وإبادة شعوب النصف الجنوبي من القارة الأميركية، ومفهوم «العنصر الثوري» لوصف عمليات الغزو التي كانت تستهدف شعوب القارات المستضعفة، وفي مقدمها غزو الجزائر في (١٨٣٠).

(١٩) يمكن مراجعة المقطع الذي يعنينا، في:

Jacques Jurquet: «La Révolution Nationale Algérienne et le Parti Communiste Français» - Editions du Centenaire, Paris, (Sans date), (p.40).

(٢٠) ف. انگلز: «القضايا الاجتماعية في روسيا»، [مؤلفات ماركس وانغلز، المجلد ٢٢ - ديتز فيرلاغ، برلين ١٩٦٣، (ص ٤٢١ - ٤٣٥)].

(٢١) لم تكشف هذه الرسالة قبل (١٩٠٧)، وذلك عقب صدور كتراس لكاروتسكي في برلين، بعنوان «الاشتراكية والسياسة الاستعمارية».

(٢٢) لينين: «ملاحظات نقدية حول المسألة القومية» ملحقاً بـ «حق الأمم في تقرير مصيرها» - المنشورات الاجتماعية، باريس، ١٩٥٢، (ص ١٠).

Cf., Horace Davis: «Toward a marxist theory of Nationalism» - Monthly Review Press, New York, (٢٣) 1978.

راجع: في شكل خاص، الفصل الثالث المتعلق بنظرية القومية عند البلاشفة، والفصل الرابع الذي يعالج المسألة القومية في الاتحاد السوفياتي.

(٢٤) لوتورب ستودارد: «حاضر العالم الاسلامي»، المجلد الثاني، الجزء الرابع - دار الفكر العربي، بيروت ١٩٧٣، [انظر: تحليل الأمير شكيب ارسلان لخلفيات الانتصار الياباني وأبعاده، (ص ١ - ٣٨)].

(٢٥) لينين: «المؤلفات الكاملة»، المجلد ٢٧، (ص ١٧٤ - ١٨٣).

(٢٦) المصدر نفسه، المجلد ٢١، (ص ٤٠١ - ٤٠٧).

(٢٧) المصدر نفسه، المجلد ٢٣، (ص ١٦٦ - ١٦٧).

(٢٨) ولدت البلشفية من طروحات لينين الأولى في (١٩٠١)، وظلّت حتى (١٩١٤) ايدولوجية روسية توفد تصوّراً للتنظيم والثورة في روسيا؛ ويبدو أنه لم يكن لدى لينين الادعاء يجعلها نظرية عالمية، قبل انفجار الحرب العالمية الأولى. غير أن تصدّع الأهمية الثانية التي تأسست في (١٨٨٩) وانهارها مع بداية الحرب الأولى، جعل لينين يفقد ثقته في الطاقة التغيرية للاشتراكية الديمقراطية الأوروبية، وي طرح بديلاً يطمح إلى أن يكون ايدولوجية عالمية.

(٢٩) ظهرت المحاولة الأولى لإعادة تشكيل الأهمية أوائل أيلول / سبتمبر ١٩١٥، في زموالد في سويسرا. وبات تأسيس الأهمية الشيوعية الثالثة ممكناً بعد انتصار انقلاب أكتوبر، ففقدت مؤتمرها الأول في موسكو في آذار / مارس ١٩١٩.

Hobson: «Imperialism», 1902. (٣٠)

عارض هوبسون الانكليزي الراديكالي، الذي ينتمي إلى جمعية الفايين، السياسة التوسعية التي انتهجها جوزف شميرلن في جنوب أفريقيا، وهي السياسة التي كانت تلقى تأييداً من مؤسسي جمعية الفايين: بيانريس وسيدني ويب.

Hilferding: «Das Finanz Kapital», 1910. (٣١)

وفر هيلفريدنغ الماركسي التساوي للينين التفسير الاقتصادي لتصوره لـ «الامبريالية»، المبني على مفهوم «رأس المال المالي» أي «رأس المال الذي تملكه البنوك ويستخدمه الصناعيون».

(٣٢) لينين: «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية»، الفصل السابع.

Cf., «Quatre Premiers Congrès Mondiaux de L'Internationale Communiste 1919-1923»; Bibliothèque Communiste. Librairie du travail, Paris Juin 1934. [Reimpression em Fac-Similé, François Maspero 1969. (p.32)].

Ibid., (p.32). (٣٤)

Ibid., (p.32). (٣٥)

Ibid., (p.32). (٣٦)

Ibid., (p.72). (٣٧)

Ibid., (p.72). (٣٨)

Ibid., (p. 79). (٣٩)

Ibid. (p. 57). (٤٠)

Ibid., (p.57). (٤١)

Ibid., (p.78-79). (٤٢)

Ibid., (p.58). (٤٣)

Ibid., (p.31-34) (٤٤)

Ibid., (p.59). (٤٥)

قد لا يكون من قبيل الصدفة هنا، إدراج الموضوعات ذات الصلة بالثورة الكولونيالية وعلاقتها بالثورة الأوروبية، في ملحق (Thèses Supplémentaires).

(٤٦) تستند هذه الموضوعات إلى مقولة إفساد الامبريالية للطبقة العاملة في أوروبا، وظهور «الاستقراطية العالمية» من جهة، ومقولة التطور اللامتكافئ لنمط الانتاج الرأسمالي من جهة أخرى.

راجع في هذا الشأن، الفصلين العاشر والرابع من «الامبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية».

Cf., «Quatre Premiers Congrès...» (p.58). (٤٧)

Ibid., (p.58). (٤٨)

(٤٩) بقي «المؤتمر الأول لشعوب الشرق»، الذي دعت إليه وأدارت مناقشاته قيادة الأمية الثالثة، ممثلة بزينوفييف ووراديك، والذي استمر من

ليل ٣١ آب / أغسطس إلى ٩ أيلول / سبتمبر ١٩٢٠. الأول والآخر من نوعه. ويعود ذلك إلى أبعاد المناظرة التي دارت فيه، وإلى الخيارات الاستراتيجية للقيادة الشيوعية.

Cf., «Le Premier Congrès Des Peuples de L'Orient», Compte-rendu eténographique. Réédition en Fac-Similé, François Maspéro, Paris 1971. (٥٠)

يستند من لائحة العضوية الواردة في مقدمة هذا التقرير، أنه كان هناك (٢٣٥) تركياً و(١٩٢) فارسياً و(٨) صينيين و(٨) أكرد و(٣) عرب، من أصل (١٨٩١) مندوباً حضروا المؤتمر. وجاء المندوبون الآخرون في معظمهم من آسيا والقفقاس.

(٥١) تجمع أبحاث ايلين كارير دانكوس وألكسندر بنغسين المكرسة لآسيا الوسطى، على أن «المسلمين الوطنيين» أو «المسلمون الشيوعيون» نبّوا البلشفية، أو ساندوا تكتيكاً السلطة السوفياتية، انطلاقاً من حركة الإحياء التي تنامت على الأطراف الشرقية للامبراطورية في أعقاب ثورة (١٩٠٥)، وأن عجز حكومة كيرنسكي عن الاستجابة لمطالبهم، دفعهم إلى أحضان البلاشفة الذين لوّحوا بشعار حق تقرير المصير، حول التفاعل بين الاسلام والعقائد والتيارات الأخرى. انظر:

– H.C.D'Encausse: «Reforme et Révolution Chez les Musulmans de L'Empire Russe-Bukhara 1867-1924» -Armand Colin. Paris 1966.

– A. Bennigsen et C. Quelque jay: «Les mouvements nationaux Chez Les musulmans de Russie: Le Sultan galériisme au Tatarstan» Moutan, Paris 1960.

(٥٢) هزم الجيش الأحمر الروسي أمام فرصوفيا في آب / أغسطس ١٩٢٠، في أعقاب سحق الثورة الألمانية (١٩١٨) والثورة الهنغارية (١٩١٩). وكان الهجوم العسكري للسوفييات ضد بولونيا، الذي أدانته الشيوعيون البولونيون أنفسهم، يهدف إلى إقامة جسر بين روسيا وألمانيا.

(٥٣) راجع: وقائع مؤتمر باكو في التقرير المذكور أعلاه.

(٥٤) انظر في شكل خاص: مداخلات ناريتوبايفوف وروسكوف.

(٥٥) يطرح هذا الخط قانون الثورة الاجتماعية المتزامنة مع الثورة الوطنية، معتبراً أن التحالف مع «البورجوازية الوطنية» يجب ألا يرتدي سوى طابع «مؤقت ومشروط».

(٥٦) ذكرت أوساط البلاشفة الجبوريين معلومات مفادها، أن مداخلات بعض المندوبين المسلمين اتسمت بالعداء الشديد للبلاشفة الروس، ما يؤيد نظرية انقسام مؤتمر باكو إلى كتلتين، وتزعّم المسلمين الكتلة الشرقية.

Cf., E.H. Carr: «The Bolchevik Revolution 1917-1923», vol 3-London, Macmillan, 1950-1953. (p.262).

(٥٧) يتبين من مراجعة الوثيقة الرسمية الوحيدة الصادرة عن مؤتمر باكو، أن مساهمات المندوبين المسلمين اختُصِرَت إلى درجة التشويه. وثمة مساهمات، خصوصاً تلك التي قدمها روسكوفوف، توجي غالباً خلال التدقيق في النص بأنها بُثرت.

Cf., H.C.D'Encausse: «Lénine, la Revolution et le Pouvoir» - Flammarion, Paris 1979; (P. 135). (٥٨)